

يا عمال العالم، اتحدوا!

طريق البلشفية



عز الدين بن عثمان الحمدي

سؤالين فائد الثورة الاشتراكية
العالمية لثلاثين سنة

نشر النشر البلشفي العربي

نونس، حزيران 2012

سؤالين ، رفيق لينين وعضده الأيمن

يعرف كثير من الرفاق ستالين من خلال إنجازاته في بناء الاشتراكية والدفاع عن دكتاتورية البروليتاريا ودحره الفاشية. لكن قليل منهم يعرف إنجازات ستالين ومساهماته الحاسمة في انتصار الثورة البلشفية وإنشاء السلطة الجديدة، سلطة السوفييتات في عهد لينين كذراع اليمين وكأخلص وأفضل تلاميذه.

لم يكن موت لينين طبيعياً، لقد وقع اختصار حياته بفعل رصاصة غادرة من قاتل فوضوي. قتل الفوضويون أيضا الرفيق سفردلوف الذي كان يشكل مع لينين وستالين النواة الصلبة لقيادة الحزب البلشفي بعد الثورة.

عندما تدهورت صحته، طرح لينين على اللجنة المركزية ضرورة إنشاء منصب الأمين العام للقيام بعدد المهام التي لم يعد لينين قادراً على القيام بها. اقترح لينين الرفيق ستالين لشغل هذا المنصب الذي ظل يشغله إلى حين وفاته. بتعيينه ستالين كخليفته في قيادة الحزب، كان لينين قد اختار أفضل بلشفي، أفضل ثوري محترف. لأن لينين عمل عن طريق «الشراكة» على كسب وتكوين ثوريين محترفين؛ بلاشفة حقيقيين، ووضع ثقته فيهم، وائتمنهم على مستقبل الثورة. وكان ستالين أفضل الشراريين؛ أفضل الثوريين المحترفين.

بدأ ستالين حياته الثوريّة في سن الخامسة عشر. وفي الخامسة والعشرون من عمره قام بتركيز منظمة شراريّة نموذجيّة في القوقاز. وقد أظهر ستالين مواهب عظيمة في النضال السّري وفي النضال العلني، في النضال الإيديولوجي وفي النضال السياسي، في تنظيم الطليعة وفي تنظيم أوسع الجماهير.

اعتقل ستالين سبع مرات ونفي ست مرات بين 1902 و1913. واستطاع الهرب في خمس منها. ونجح ستالين، خلال هذه الفترة، في الوصول إلى اللجنة المركزيّة سنة 1912. ولم يمض وقت طويل حتى عُهد إليه بقيادة مجمل النشاط العملي في الحزب.

قدّم ستالين، بالإضافة إلى مهامه العمليّة العديدة، مساهمات نظريّة هامّة خاصّة في القضية القوميّة من خلال مؤلفه سنة 1913. يعود الفضل للرفيق ستالين في بلورة التّظرية الماركسيّة في قضية الأمم والتي برزت أهميتها الحاسمة في بناء الاتحاد السّوفييتي وبناء المعسكر الاشتراكي وقيادة نضال الشّعوب والأمم المضطّهدة ضدّ الاضطهاد الإمبريالي.

عندما تحرّر ستالين من منفاه عام 1917، عاد لتحتمّل مسؤوليّة الحزب في روسيا، في بتروغراد. وكان المسؤول عن تحرير جريدة البرافدا. كان ستالين في تلك الفترة يناضل ضدّ عناصر مثل كامنييف الذي كان يعمل على أن ينخرط البلاشفة في التوفيق بين الثّورة ومصالح البرجوازيّة. ولما قدم لينين إلى روسيا وألقى «أطروحات أبريل»، كان ستالين أوّل من تبنت موقف لينين، وناضل إلى جانب لينين من أجل أن يقع تبنيها من

طرف الحزب. لقد كان ستالين الشريك الأقرب إلى لينين خلال تلك الأشهر التي سبقت الثورة.

عندما اضطرَّ لينين إلى الاختفاء في فنلندا بسبب قمع البرجوازية وحكومة كيرنسكي كان الرفيق ستالين هو الذي بقي باتصال به خلال هذه الفترة. سعى تروتسكي وكامنييف وزينوفيف في تلك الفترة العصيبة إلى أن يُقدّم لينين إلى المحاكمة أمام الحكومة المؤقتة. ستالين الذين كان يعلم أن ذلك يعني قتل لينين، رفض ذلك بعناد. إن معارضته الحازمة لمسعى هؤلاء الانتهازيين لإخضاع لينين لمحاكمة رجعية هي التي أنقذت لينين من موت كان محققاً. ماذا كان سيحصل لو قتلت حكومة كيرنسكي لينين؟ كلنا يعلم الدور الحاسم للينين في نجاح ثورة أكتوبر. لذلك نؤكد، دون تردد، أن موقف ستالين وجهوده لإنقاذ حياة لينين قد جنبت ثورة أكتوبر والثورة البروليتارية العالمية ضربة كبرى كانت ستكون لها نتائج كارثية.

في أكتوبر 1917 كونت لجنة الحزب البلشفي المركزية مركزاً لقيادة عمليات الانتفاضة من أجل الاستيلاء على السلطة، وكان ستالين هو قائد ذلك المركز الذي أشرف على جميع التحضيرات والأعمال المتعلقة بالانتفاضة المسلحة في ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى.

في السنوات التي تلت استيلاء البروليتاريا على السلطة في الاتحاد السوفييتي، كان ستالين مع لينين وسفردلوف يشكلون التواة القائمة في الحزب والدولة. خلال الحرب الأهلية، ولتلافي النتائج الكارثية والخيانية التي تسبب فيه ضباط قيصريون قام تروتسكي بـ«تأهيلهم»، أرسلت

اللجنة المركزيّة ستالين إلى الجبهات الأكثر خطورة وأهميّة وأعطته الصلاحيات القصوى لتنظيم وقيادة الجيش الأحمر من أجل التّصر. عندما كان الأمر يتعلّق بمصير الثّورة والدولة الفتية كان الحزب يرسل دوما ستالين. كان ستالين هو الذي رسم الخطط الإستراتيجية الأكثر أهميّة، وهو الذي قاد العمليات العسكريّة والمعارك الحاسمة في تزارتسان وفي برام وفي بتروغراد وخلال المعارك ضدّ دانكين وفي الغرب ضدّ النبلاء البولونيين. في كلّ مكان كانت الإرادة الحديديّة والذكاء الاستراتيجي لستالين يجلبان التّصر تلو التّصر. كان ستالين هو الذي درّب وقاد المفتّشين العسكريين الذين قال عنهم لينين أنه بدونهم لم يكن ليوجد جيش أحمر.

كان ستالين هو الذي وقف إلى جانب لينين ضدّ السياسة الخائنة «للمعارضة اليساريّة» بخصوص صلح بريست-ليتوفسك، بخصوص دور النقابات وبخصوص تنظيم الاتحاد السوفييتي من أجل بناء الاشتراكية.

لما مات لينين، كان للحزب البلشفي قائد جدير بمواصلة عمل لينين العظيم هو الرفيق ستالين.



ستالين قائد الثورة الاشتراكية العالمية

لثلاثين سنة

في الفترة التي توفي فيها لينين، كان الاتحاد السوفيتي ما يزال ضعيفا على عديد المستويات. كان عليه أن يشرع في انجاز المهمة الصعبة، مهمة بناء الاشتراكية. وعندما توفي الرفيق لينين، كان العمل على مستوى تطوير الثورة البروليتارية العالمية وتوحيد بلد الاشتراكية والبروليتاريا العالمية مع حركات التحرر الوطني الثورية، كلّ ذلك كان ما يزال في بدايته.

عند وفاته، كان ستالين على رأس حزب لينين العظيم. عند وفاته، كان ستالين على رأس الاتحاد السوفيتي؛ أعظم دولة اشتراكية في العالم، الدولة التي عانت التخلف في عهد القيصرية ودمار الحرب العالمية الأولى وسنوات الحرب الأهلية التي تلت الثورة البلشفية، والتي أصبحت بقيادة ستالين في طريقها لأن تصبح البلد الأكثر تطورا من الناحية الاقتصادي في العالم.

عند وفاته، كان ستالين أيضا على رأس معسكر اشتراكي قوي. كانت هذه الجبهة العالمية التي تنتصب ضد الإمبريالية تضم 12 بلدا اشتراكيا وديمقراطيا شعبيا متحالفين مع حركات التحرر الوطني الثورية والحركة البروليتارية في البلدان الإمبريالية التي كانت تقودها أحزاب شيوعية منتشرة في جميع البلدان.

لقد شكل ذلك معسكرا قويا للثورة العالميّة. في الجهة المقابلة كان هناك المعسكر الإمبريالي، الذي ضعف بصورة جدية. كان المعسكر الاشتراكي يمتدّ على نصف مساحة الأرض ويضمّ نصف سكانها تقريبا يضاف إلى ذلك حركات التحرّر الوطني الثوريّة والحركة البروليتاريّة في «المتروبولات» الإمبرياليّة بقيادة أحزاب شيوعيّة قويّة. لأوّل مرة في التاريخ العالمي يصبح المعسكر الاشتراكي مسيطرا وأقوى من المعسكر الإمبريالي ويستعدّ لدفنه عالميا.

كان الرفيق ستالين على رأس هذه الجبهة العالميّة. لقد أخذ ستالين نظريّة لينين حول كيفية القضاء على الإمبرياليّة وطبقها خلال ثلاثين سنة من خلال قيادته لحزب لينين والحركة الشيوعيّة العالميّة.

قبل وفاة لينين، حاول الانتهازيون الانتقال إلى الهجوم من أجل تخريب الثورة وتخريب الحركة الشيوعيّة العالميّة من الداخل. لقد فشلت برجوازيّة العالم «المتمدّن» بأسره في القضاء على الثورة البلشفية من خلال الحرب الأهليّة، وهي تحاول الآن القضاء عليها من الداخل. وجدت البرجوازيّة ضالتها في شخص يدعى تروتسكي فقامت بحملة عالميّة لتضخيمه والتفخ في صورته معتبرة إياه الوريث الشرعي للينين.

لكن تروتسكي لم يكن بلشفيّا. رفضته الأغليبيّة السّاحقة في الحزب البلشفي والطبقة العاملة. لم يكن له من أنصار في الاتحاد السّوفييتي غير بعض البرجوازيين الصغار المرعوبين من دكتاتورية البروليتاريا وحلولها العامية الثوريّة، وبعض المثقفين البرجوازيين الصغار المتذبذبين داخل

الحركة الشيوعيّة العالميّة. ورغم ما يدعيه التروتسكيون من أن ستالين قتل تروتسكي لأنه اختلف معه فإن ستالين لم يفعل ذلك.

في الحقيقة، انخرط ستالين في نقاشات وصراعات واسعة، علنيّة وجاهيريّة في جميع هياكل الحزب البلشفي وفي صلب الطبقة العاملة ضدّ أفكار تروتسكي. وقد نشر الحزب وجهات نظر تروتسكي ونقد ستالين لها، ورفضت الأغليبيّة الساحقة صلب الحزب والطبقة العاملة أفكار تروتسكي ورأت فيها تبشيرا بهزيمة الثّورة. لقد أثبت تروتسكي أنه ليس بلشفيًا وليس شيوعيًا وأنه لا يفهم وجهة نظر الطبقة العاملة ودكتاتورية البروليتاريا، وحاول في الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر تنظيم انقلاب لـ«المعارضة اليساريّة». آنذاك أعلنت التروتسكية إفلاسها التامّ وكشفت عن طابعها المعادي للثورة. آنذاك تصرّف الحزب البلشفي بقيادة ستالين بحزم إزاء تروتسكي ووقع إعفاؤه من جميع مهامه داخل الحزب. لكن تروتسكي لم يتوقف عند ذلك الحدّ، فقد واصل تأمره على الاتحاد السّوفييتي وحاول تنظيم الثّورة المضادّة إلى أن اضطرت القيادة السّوفييتية إلى اتخاذ قرار بنفيه إلى الخارج.

لقد دافع ستالين عن الثّورة بيقظة بروليتاريّة متناهية ضدّ مرض التروتسكية. وبعد الانتصار عليها وفضحها مسترشدا بالماركسيّة اللينينية، واصل طريق الثّورة العالميّة الذي سطره لينين، وواصل بناء الاشتراكية في الاتحاد السّوفييتي. يعتقد كلّ من لينين وستالين أنه بالإمكان بناء الاشتراكية في الاتحاد السّوفييتي، لكن أشخاصا مثل تروتسكي لا يريدون الاشتراكية وشرعوا في صياغة سلسلة من التّظريرات الثرثرة اليمينيّة

و«اليسارية» بقصد منع الاتحاد السوفييتي من السير في طريق الاشتراكية. فزعم تروتسكي أنه لا يمكن للاتحاد السوفييتي أن يصبح اشتراكيا، وما معنى أن الاتحاد السوفييتي لا يمكنه أن يصبح اشتراكيا؟ الجواب بكل بساطة هو أن يعود إلى الرأسمالية، أن تعود روسيا بلدا تابعا للدول الإمبريالية. كانت تلك هي أهداف تروتسكي. فهل من حاجة للتساؤل عن السبب الذي جعل البرجوازية العالمية تعتبر تروتسكي الوريث الشرعي للينين؟

من الطبيعي أن الصراع الطبقي لا ينتهي بعد تركيز دكتاتورية البروليتاريا، لذلك لم تستسلم البرجوازية ولم تكف عن محاولاتها إعادة الرأسمالية إلى الاتحاد السوفييتي. بوخارين، أحد أصدقاء تروتسكي القدامى في «المعارضة اليسارية»، وبعد أن قام بمراوغة نحو اليسار، أصبح زعيم الانحراف اليميني داخل الحزب داعيا إلى «بناء الاشتراكية عبر تطوير الرأسمالية في الريف ومن ثمة تحويلها سلميا إلى اشتراكية». في الحقيقة لم يكن خروتشوف ولا ماو تسي تونغ أب نظرية «الانتقال السلمي للاشتراكية» بل بوخارين عندما زعم أن من الممكن بلوغ الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي دون خوض الصراع الطبقي ضد البرجوازية.

وقعت إدانة هذه النظريات الانتهازية بسرعة وصرامة من طرف الحزب البلشفي الذي أخذ، هذه المرة، العبرة من التجربة المريرة مع خيانة تروتسكي. هذه المرة أيضا لم يعدم بوخارين بسبب خلافه الفكري مع ستالين رغم عزله عن جميع مهامه داخل الحزب. فعلى إثر نقاش مفتوح

وديمقراطي وفق القواعد اللينينية، رفض الحزب كليا وأدان أفكار بوخارين ونظرياته الرامية إلى إعادة الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي.

لكن البرجوازية التي كان ستالين والحزب البلشفي يهزهما فكريا في كلّ مرة، وأمام عجزها عن زعزعة الوحدة الإيديولوجية والسياسية للحزب وعجزها عن إضعاف الدفاع عن نقاوة الماركسيّة اللينينية، اضطرت إلى اللجوء إلى التخريب وتنظيم المؤامرات.

كانت البرجوازية خارج الحزب البلشفي أو خدمها من الانتهازيين داخل الحزب يعارضون في كلّ منبرج حاسم خوض الصراع الطبقي من أجل السير قدما نحو الاشتراكية. فبعد فضح الخط البوخاريني المدافع عن الكولاك، سعى هؤلاء إلى الحفاظ على مصالحهم الرأسمالية والبقاء كطبقة ذات امتيازات في الاتحاد السوفييتي. بعد أن جمعوا بين أيديهم أكبر الضيعات على حساب الفلاحين المتوسطين وخاصة الفقراء، نظم الكولاك احتكار الحبوب ورفضوا بيعه في السوق في محاولة منهم للتعجيل بانهياب الاتحاد السوفييتي عبر خلق المجاعة في المدن والأرياف. لكن ستالين لم يكن يسمح لعصابة من الكولاك أن تحطم الاشتراكية في بلد الاشتراكية الأول، وكذلك الطبقة العاملة السوفييتية وطبقة الفلاحين الفقراء، فظهرت في كلّ مكان في الاتحاد السوفييتي لجان الفلاحين الفقراء في خضم الصراع الطبقي ضدّ الكولاك وقد كان عنيفا جدا. إن الذين يذرفون الدموع إلى اليوم على الكولاك الذين ماتوا في ذلك الصراع الطبقي العنيف إنما يذرفونه على البرجوازية. لقد شكلت هزيمة الكولاك وتنظيم التعاويثات

الفلاحية ضربة قويّة وحاسمة للأحلام البرجوازية في إعادة روسيا للحضيرة
الرأسمالية.

لذلك عمدت البرجوازية إلى تكثيف جهودها من أجل القضاء على
دكتاتورية البروليتاريا عن طريق دعم مؤامرات التروتسكيين والزيوفيفيين
والبوخارينيين الذين تنظموا في منظمات سرية بتمويل مباشر من الإمبريالية
وبالخصوص الفاشية الهتلرية. لكن الحزب البلشفي بقيادة ستالين أحبط
تلك المناورات وتمّ القبض على تلك العصابات في الوقت المناسب
وتقديمهم إلى العدالة وأمام العالم بأسره وقع تقديم الأدلة القاطعة التي
تدينهم.

ليس ستالين من قتل جميع هؤلاء المعادين للثورة، بل هي الثورة،
دكتاتورية البروليتاريا التي سدّدت ضربة حاسمة للبرجوازية. إن صحّة هذه
الممارسة الثورية هي التي جعلت الاتحاد السوفييتي البلد الوحيد في العالم
الذي يخلو من طابور خامس في خدمة الفاشية الهتلرية أثناء الحرب.

بالتوازي مع سحق الثورة المضادة، كان الاتحاد السوفييتي يسير بخطى
عملاقة في بناء الاشتراكية مما جعل الاتحاد السوفييتي البلد الوحيد في
العالم الذي ينجو من الانهيار الاقتصادي الكبير للثلاثينات الذي غرق
فيه العالم الرأسمالي. وأقرّ الاتحاد السوفييتي دستوره الجديد؛ الدستور
الاشتراكي، أرقى دستور عرفته البشرية. ما كان يجري خلال الثلاثينات
إنما هو الثورة، الثورة على جميع الجبهات، الهجوم العام على الرأسمالية
والبرجوازية. ليس ستالين من قام بجميع تلك الانجازات إنما الطبقة العاملة

السوفيتية المتحالفة مع الفلاحين الفقراء في إطار نظام دكتاتورية البروليتاريا الذي يقوده الرفيق ستالين.

بالإضافة إلى ذلك حقق ستالين قيادة عبقرية للحركة الشيوعية العالمية، ففي عهده تطورت الأحزاب الشيوعية وأصبحت بمرور الأيام أحزابا جماهيرية تقود فعليا نضال البروليتاريا العالمية وحركات التحرر الوطني الثورية. وتحت قيادة ستالين تم فضح وسحق الفاشية، وكانت الأممية الثالثة هي التي نظمت وقادت الجبهة العالمية الموحدة ضد الحرب. الفاشية هي الدكتاتورية السافرة والإرهابية للشراخ الأكثر رجعية في الرأسمال المالي الوجهة أساسا ضد الطبقة العاملة. وكان الاتحاد السوفيتي بقيادة ستالين البلد الوحيد الذي ساند النضال البطولي للشعب الإسباني ضد الفاشية، وكانت الأممية الثالثة هي التي أرسلت فرقا لمحاربة فرانكو وعصاباته الفاشية.

لقد دعمت البرجوازية العالمية الفاشية بهدف محاربة الشيوعية وتحطيم الاتحاد السوفيتي. وقد طالب ستالين الديمقراطيات البرجوازية مرارا بأن تبرم مع الاتحاد السوفيتي اتفاقات للتصدي للفاشية لكنها رفضت ذلك. كان ستالين واعيا بمخططات الإمبريالية تلك، فعمل على الاستفادة من التناقضات فيما بين الدول الإمبريالية من أجل المساعدة على حماية وطن الاشتراكية وقام بإبرام معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا. كان ستالين يعرف طبعاً أن هذه المعاهدة لن تعمر طويلاً، وأن الحرب مع ألمانيا حتمية. لكن ذلك أتاح للاتحاد السوفيتي الوقت لكي يستعد للحرب، لكي ينقل صناعته إلى الشرق. وكان ستالين يعلم أنه حتى وإن تحالفت الديمقراطيات

البرجوازية مع الاتحاد السوفييتي ضد هتلر فإن العبء الأساسي للحرب سيقع على هذا الأخير وأن مهمة القضاء على النازية موكولة أساساً إلى لاتحاد السوفييتي. وقد أثبت كل مجرى الحرب ونتائجها بعد نظر ستالين وصحة خطه السياسي والعسكري.

لقد كانت الدول الإمبريالية، رغم تحالفها مع الاتحاد السوفييتي، تأمل في أن تحطم الجيوش النازية والجيوش الشيوعية بعضها بعضاً ليأتوا بعد ذلك لتقاسم الكعكة. لكن الاشتراكية أثبتت تفوقها على الرأسمالية، وكانت قوى الاشتراكية تسير في جميع أنحاء العالم نحو النصر. عندها، وعندها فقط، وافق الإمبرياليون على فتح جبهة ثانية في الحرب.

إن الانجازات الملموسة التي تحققت في ظل قيادة الرفيق ستالين العظيمة خلال ما يقرب من ثلاثين سنة، جعلت الاشتراكية تتفوق اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً وثقافياً على الإمبريالية. في بداية الخمسينات من القرن الماضي وتحت قيادة ستالين، كان واضحاً أن قضية القضاء عالمياً على النظام الإمبريالي أصبحت قضية راهنة مطروحة على جدول الأعمال وأنه لم يبق الكثير لدفن الرأسمالية نهائياً. ذلك هو مغزى حياة وانجازات ستالين وخطه النظري والسياسي. لأن ستالين هو من طبق الماركسية اللينينية تطبيقاً خلاقاً على الظروف الملموسة للعالم خلال ثلاثين سنة، وهو الذي قاد الاتحاد السوفييتي والحركة الشيوعية العالمية من نصر إلى نصر حتى أصبحت الاشتراكية أقوى من الإمبريالية في العالم.



شبه ستالين يفضّ دوما مضاجم

البرجوازيّة والطبقات الرجعيّة

إن مساهمات الرفيق ستالين هي تجسيم جلي للعلاقة الجدلية بين التّظرية والممارسة. «نجد فيها كلّ شيء ولا نجد فيها أي حشو» هكذا قال لينين عن مقالات ستالين. ويلاحظ القائد الشيوعي الفرنسي هنري بربوس «لا نجد في كتاباته أي قطرة ماء». تكثيف للأفكار التي تناسب بوضوح ودقة مثل «البيان الشيوعي» لماركس وأنجلس.

قدم ستالين خلاصة عبقرية لأعمال لينين وأبرز الأسس والمبادئ والمسائل الجوهرية للينينية مؤكدا على أنها التّظرية العلمية والثوريّة الوحيدة للثورة البروليتاريّة ودكتاتورية البروليتاريا. ولكنه اضطلع بمهام جليّة أخرى: تطوير التّظرية اللينينية حول القضيّة القوميّة وقضيّة الثورة في المستعمرات وأشباه المستعمرات باعتبارها جزءا من الثورة الاشتراكية العالميّة، كان عليه أيضا صياغة التّظرية والممارسة الماركسيّة اللينينية في قضايا تصفية النظام الرأسمالي ودكتاتورية البروليتاريا وبناء الاشتراكية. ويعود للرفيق ستالين البرهنة على أن وجود نظامين، النظام الرأسمالي الإمبريالي والنظام الاشتراكي، يخلق حتميّة الصراع التناحري بين النظامين طيلة فترة تاريخية كاملة. وخلال تأكيده على أن بناء المجتمع الاشتراكي المتطور في بلاد السوفييت لا يحول دون الخطر القائم دائما بإعادة الرأسماليّة، وضع ستالين الشروط الضرورية لإفشال هذا الخطر.

إن كتابات ستالين تحمل حتى من حيث الشكل خصائص تاريخية فرضها تدشين عصر الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا: الصبغة الحية والنضالية لصياغة النظرية، صراع حاد ودائم من أجل انجاز الثورة، من أجل إبقاء البروليتاريا في السّلطة، من أجل التقدم بالبناء الاشتراكي في زمن أصبح فيه اتحاد الجمهوريات السّوفيتية مركز الثّورة العالميّة والحروب الوطنية التّحرّرية، قوة المثل الحي الذي وفره الاتحاد السّوفيتي زمن لينين وستالين جعل من التّظرية قوة مادية عالميّة هائلة.

في تلك الظروف، كان على النشاط التّظري، ممّا يقتضيه من تجريد، أن يضمن القيادة الفعلية لنضال الجماهير وأن يعبر على حدّ سواء على مصالح البروليتاريا الماسكة بالسّلطة وعلى البروليتاريا والشّعوب المضطّدة التي تناضل من أجل القضاء على الرّأسماليّة الإمبرياليّة وتغيير العالم. والماركسيّة اللينينية هي التّظرية الوحيدة القادرة على توحيد جهات النضال هذه ضدّ الرّأسماليّة. إذا تغافلنا عن هذه الخصائص التاريخيّة تنفصل التّظرية عن الجماهير وتتركها بدون نظريّة ثورية. لذلك جاءت كتابات ستالين واضحة، مباشرة، مبدئية وصارمة إزاء الانحرافات، لا مجال فيها للميوعة أو الترف الفكرين، كلّ الأهمية للعقلانية والواقعية ونبذ التحليل والنظرات الذاتية.

لقد منحت الضربات الموجعة التي تعرضت لها الاشتراكية بفقدان البروليتاريا والجماهير الكادحة في العالم منذ سنة 1953 لمنارة الإتحاد السّوفيتي، مركز النضال العالمي ضدّ الرّأسماليّة الإمبرياليّة، المثل الحي على إمكانية بناء مجتمع خال من الاستغلال، للبرجوازية والطبقات الرجعيّة الأخرى فترة راحة أو «إسعاف تنفيذ». لكن شبح الرفيق ستالين وأعماله

العظيمة يقض دوما مضاجعهم. ولا أدل على ذلك من الحملة المتواصلة ضدّ
انجازات وشخص ستالين الذي يجسد بالنسبة لهم الشر المطلق والخطر
القاتل: الاشتراكية المنجزة على أرض الواقع.



ستالين ، خط التمايز بين النخريفية

والماركسيّة اللينينية

إنّ الدفاع عن انجازات الرفيق ستالين وخطه التّظري والسّياسي قضية مبدئية بالنسبة للماركسي اللينيني ، هي خط تمايز بين التحريفية والانتهازية من جهة والماركسيّة اللينينية من جهة أخرى. إن الذين يتبنون ماركس ، أنجلس و لينين ويترددون في تبني ستالين أو لهم «وجهة نظر نقدية» تجاه ستالين ، لا يختلفون عن أولئك الذين يقولون إنهم يتبنون ماركس وأنجلس ويترددون في تبني لينين أو لهم وجهة نظر نقدية إزاء لينين ، لا يختلفون عن أولئك الذين يقولون أنهم يتبنون ماركس ولكن لهم شكوك إزاء أنجلس ويترددون في الدفاع عنه ، لا يختلفون عن أولئك الذين يقولون إنهم يتبنون ماركس الشاب ولكن لهم ترددات و مأخذ على ماركس الكهل . جميع هذه المفاهيم هي مفاهيم مثالية برجوازية حاول التحريفيون التروتسكيون والفضويون و«الأكاديميون» تسميم البروليتاريا والشّعوب بها. إذا شرع المرء في دعم ماركس ، يقولون له «طبعاً ، ولكن هناك ماركس الشاب الإنساني وهناك ماركس الكهل المادي البارد». وإذا تجاوز المرء هذا السقف وتبنى ماركس ، يقولون له «طبعاً ، ماركس جيد ولكن احذر أنجلس فهو دغائي». وإذا نجح المرء في تجاوز هذه العتبة ، صاحوا به «طبعاً ، ماركس وأنجلس هذا جيد ولكن ليس ذلك الدكتاتور لينين». وإذا نجح المرء في تجاوز جميع هذه العتبات ، أحاطوا به من كلّ جانب مزجحين «طبعاً ، ماركس ، أنجلس و لينين كلهم جيدون ولكن لا لذلك

المستبد ستالين». وهناك أيضا البعض ممن يدافع عن ماو تسي تونغ يدعي في نفس الوقت أنه يدافع عن ستالين، هذا الأخير ليس في حاجة لدفاع ماو المسموم، ذلك «الدفاع» الذي تبني جميع تشويبات خروتشوف وجميع أطروحات المؤتمر العشرين التحريفية. إن الدفاع عن ماو مهما كانت درجة ذلك الدفاع يعني الهجوم على ستالين، لأن الماوية مضادة مباشرة للماركسية اللينينية. كلها أشكال وألوان من التحريفية والانتهازية.

إن الانجازات الخالدة للرفيق ستالين هي مواصلة وتطوير ثوري للماركسية اللينينية. معاداة ستالين تعني معاداة لينين ومعاداة أنجلس ومعاداة ماركس، لا يوجد مكيالين في الماركسية اللينينية ولا تبني نقدي. هناك الإيديولوجية البرجوازية بمختلف أشكالها وتلويحاتها التحريفية وهناك الماركسية اللينينية لكلاسيكي الماركسية اللينينية: ماركس، أنجلس، لينين وستالين.

نسأل الذين يترددون في تبني ستالين والدفاع عنه: ما الذي يجعلهم مترددين؟ ألم يقد ستالين الاتحاد السوفييتي وشعوب العالم إلى النصر على الفاشية وسحقها؟ أكان على ستالين أن لا يصفى الثورة المضادة وأعوان الفاشية الهتلرية والإمبريالية العالمية الذين كانوا يسعون للقضاء على دكتاتورية البروليتاريا وإعادة الرأسمالية إلى الاتحاد السوفييتي؟ هل كان مطلوبا من ستالين عدم ممارسة دكتاتورية البروليتاريا على البرجوازية وأعوانها؟ هل كان عليه أن لا يقود النضال من أجل تصفية الكولاك كطبقة ومن أجل التصدي لتهديدهم بتجويع الشعب الروسي ومن أجل بناء الاشتراكية؟

القضية ليست لماذا تتبنى ستالين؟ القضية هي لماذا لا تريدون تبني ستالين والدفاع عن انجازاته النظرية والسياسية والاقتصادي والعسكرية كقائد للاتحاد السوفييتي البروليتاريا العالميّة لثلاثين سنة؟ من أين استقيتم أفكاركم المعادية للستالينية؟ ماذا تعرفون عن ستالين؟ هل قرأتم كتبه؟ هل درست تاريخ الحزب الشيوعي البلشفي للاتحاد السوفييتي؟ هل قرأتم النصوص التي يوضح فيها ستالين تروتسكي وزينوفيف وبوخارين علنا وأمام الجماهير وبحضور هؤلاء في القاعة؟ هل قرأتم محاضر جلسات محاكمات موسكو وشهادات الصحافة العالميّة وشهادات الدبلوماسية الأجنبية؟ هل قرأتم تقارير شهادات الشيوعيين والاشتراكيين والنقائيين الذين زاروا الاتحاد السوفييتي خلال عشرينات وثلاثينات القرن الماضي؟ هل لديكم فكرة عما كانت تثيره مناورة الاتحاد السوفييتي من حماس وثقة ووضوح رؤيا لدى البروليتاريا العالميّة وجميع الشعوب المضطهدة؟ ألم تدركوا أن البروليتاريا العالميّة تحت القيادة المظفرة للرفيق ستالين هي التي سحقّت الفاشيّة وسدّدت ضربات قاتلة للإمبرياليّة العالميّة وانتزعت منها نصف العالم؟

إذا لم تقرأوا هذه النصوص، فمن أين أتت أفكاركم المعادية لستالين؟ إن الأفكار المعادية لستالين ورثها شيوعيو اليوم من الدعاية البرجوازيّة، من الدعاية التروتسكية، من الدعاية الخروتشوفية ومن الدعاية الماوية والخوجية. إن تلك الأفكار لا تدفعنا إلى التشكيك في ستالين بل إلى التيقن بأن الكثيرين ممن يدعون الماركسيّة اللينينية هم غارقون في الايدولوجيا البرجوازيّة.

إننا لا نقول أن ستالين لم يرتكب أية أخطاء، تماما كما لا نقول أن ماركس، أنجلس ولينين لم يرتكبوا أية أخطاء. ولكن الأخطاء المزعومة التي يرددها الخروتشوفيون والماويون ومن قبلهم التروتسكيون والبرجوازيون هي بالضبط ما يشكل دكتاتورية البروليتاريا، هي بالضبط ما يشكل بناء الاشتراكية الحقيقية، هي بالضبط الخط النظري والسياسي البلشفي الثوري الذي دافع عنه وطوره ستالين. ينتقد أولئك الخونة ستالين لأنه صفي الثورة المضادة وقضى على الطابور الخامس إبان الحرب العالمية الثانية، ينتقدونه لأنه دافع عن اللينينية وكرسها كاركسيّة عصر الإمبريالية والثورة البروليتاريّة ضدّ ادعاءات تروتسكي وزينوفييف والأمية الثانية الذين رؤوا فيها نتاج روسيا المتخلفة، لأنه رفض بناء الاشتراكية مع الكولاك و«تريبتم» بطريقة سلميّة كما فعل ماو مع برجوازيته «الوطنية»، لأنه رفض الديمقراطية الليبرالية واعتبر، على غرار لينين، أن دكتاتورية البروليتاريا على قاعدة السوفييتات هي الأرقى وهي الكفيلة بسحق البرجوازيّة على عكس ما فعله ماو تسي تونغ بتشريع نشاط الأحزاب البرجوازيّة والصحافة البرجوازيّة في الصين، لأنه رفض تمليك التعاويّات الفلاحية الأرض ووسائل الإنتاج مثلما فعل خروتشوف بعد ذلك ومثلما فعل ماو في الصين، لأنه رفض إعطاء الأولوية في التصنيع الاشتراكي للصناعة الخفيفة وركز البناء على صناعة وسائل الإنتاج حتى يحقق استقلال الاتحاد السوفييتي على الدول الإمبريالية على عكس ما طرحه ماو تسي تونغ وخروتشوف فيما بعد، لأنه رفض تبني الأطروحة التحريفية حول خفوت الصراع الطبقي بعد بناء الاشتراكية التي تبناها خروتشوف والحزب الشيوعي الصيني بعد ذلك، الخ.



صدر لأول مرة في:

الحوار الممتد، عدد 3521، 2011/10/20

